صورة الفيلسوف الرازي في شعر معروف الرصافي
تجسيد للقيم الاجتماعية العراقية

أ.د مجيد مخلف طراد
مركز إحياء التراث العلمي العربي – جامعة بغداد
Majeed.m.trad@gmail.com

الملخص

كانت روح الرصافي ميالة إلى الفلسفة وهذا الميل الذي عبّر عنه بالتساؤل و التدقيق في كل شيء والبحث عن ماهية الأشياء التي تكمن وراء ظواهرها المختلفة ويكفي صلته بها أنه كتب في موضوعاتها اكثر من عشر قصائد ، وتعدّ قصيدته (جالينوس العرب أبو بكر الرازي) أقوى و أجمل قصائد الرصافي التي تتحدث عن الجانب الفلسفي من شعره إذ احتوت على أبعاد فلسفية دقيقة تعبر عن الأثر الواضح لشخصية الفيلسوف الرازي وشعره فحاول أن يجسد تفاصيل هذه الشخصية ادبياً عن طريق هذه القصيدة والتي مزج فيها الشعر بالفلسفة أو الفلسفة بالشعر بخيط من قوة الذهن والذاكرة و مواهب نظرية فريدة تأتت إليه . كلمات مفتاحية : الفيلسوف ، تجسيد ، القيم .

The image of the philosopher al-Razi in the poetry of the Maroof Rasafi

Prof. Dr. Majeed Mukhlif Taraad
Center Revial of Arab Science Heritage_ Baghdad of University

Abstract:

the spirit of the poet Al- Resafi tend to philosophy and this would express him by questions and how he would be accurate in every thing of that subject added to

that he tried to search about the importance things that had hidden inside , thus he wrote about ten poems in this field. his poem titled (Arab Gallenius Abi Bakr Arazi) considered the most power and beautiful among Al-Resafi,s poems which had talked about the philosophy side from poetry, it contained accurate philosophical dimensions which had expressed the effect of the philosophers character of Al-Razi and his poetry.he tried to embodied the details of this character literary through this poem through which he mix up the poetry with philosophy with the hint of memory power with Theoretical talents or oppositely .

key words : Philosopher ,incarnation ,Values .

المقدمة

الرصافي شاعر كبير ومفكر عملاق واسع الآفق متنوع الثقافة ؛ جمع بين نقاء المفردة ونصاعة العبارة وتصوير الفكرة وعمق اثارها ، وقد مكنته هذه القدرة اللغوية والبيانية وملكته الشعرية من التعبير عن الظواهر الاجتماعية ، والطبيعية ، والسياسية ، والفلسفية كأروع واعمق ما يكون عليه هذا التعبير .

كُتبت بحوث ودراسات كثيرة عن الرصافي ومنها ما كانت عنواناً لرسائل وأطاريح اكاديمية [١] نالوا اصحابها عن طريقها درجة علمية عليا ، أقول على الرغم من ذلك لا يزال المجال يتسع اكثر للكتابة عنه ، فقد كان شعره ذا طابع موسوعي عالج فيه موضوعات عدة ، وذاك أن الرصافي صاحب موهبة وفكراً متسعين وحب جارف للإحاطة بكل ما تقع عليه عيناه فيحيله شعراً تناولت أغلب هذه الدراسات والبحوث موضوعات حياته وبعض جوانب من شعره ،

وبقي البعض الآخر منها لم يتطرق إليه الباحثون وأن أشاروا إليه إلا أنه لم يشبع درساً ؛ ولعل أحدى وأهم هذه الجوانب هي الموضوعات الفلسفية التي تظمنتها قصائده ، والتي تنم عن ارتقائه بالقصيدة الشعرية إلى مستوى الإبداع العقلي ، إذ قدم عن طريق شعره رؤية فلسفية بمنظور جديد وعميق للقضايا الفكرية ، فعبر عنها بمزيد من الصدق، والعمق ، والاصالة ايماناً منه أن قوة الشعر لابد أن تتعمق بالأفكار الفلسفية فجاءت أجمل قصائده تلك التي امتزجت بالفلسفة .**المبحث الأول :**

كانت روح الرصافي ميالة إلى الفلسفة ، هذا الميل الذي عبر عنه بالتساؤل والتدقيق في كل شيء والبحث عن ماهية الأشياء التي تكمن وراء ظواهرها المختلفة ، ويكفي صلته بها أنه كتب في موضوعاتها أكثر من عشر قصائد نذكر على سبيل المثال لا الحصر ، البحث عن الحقيقة التي هي غاية الفلسفة وانشودتها المعرفية الخالدة ومحاولة معرفة ماهية الإنسان ووصف مكوناته الأساسية الممتثلة بالروح والجسد في قصيدته بين الروح والجسد وهي القضية التي شغلت فكر الفلاسفة أنفسهم وجادلوا فيها كثيراً للوقوف على حقيقة هذا الارتباط بينهما ، فضلاً عن قصائده التي تناولت الكون والعالم والهرطفة وغيرها ، ففي قصيدته (خواطر شاعر) مثلاً يحاول أن يقف عند حقيقة الإنسان وسر تكوينه الذي ظل لغزاً عجيباً بالنسبة له ويعتريه شوقاً كبيراً لمعرفة ما وراء هذه الحياة والذي يقول في بعض ابياتها

لعمرك ما كل انكسار لـه جبـر

ولا كل سر يستطاع به الجهر

لقد ضربت كفّ الحياة على الحجا

ستار فعلم القوم في كنهها نزر (٢)

أو قصيدته وجه ابن آدم الذي حاول فيها أن يصور جسد الإنسان وأعجابه بما فيه من تناسب وتلائم بين مكوناته كآلة النطق ، والعين ، والأنف ، والحاجب ، وهدب العيون الذي يحميها من الاقذاء والأضواء وما يظهر على الوجه من انفعالات عاطفية ووجدانية كالضحك والبكاء ففيه تقرأ سرائر النفوس وما تخفيه كما في الأبيات الآتية من القصيدة

لله سرّ فـي الانام مطلسم

حار الفصيح بوصفه والأعجم

ما العجب من ابن آدم فهو ما

نسق الكلام بـه إذا نطق الفـم

والأنف في وجه ابن آدم زينة

فالوجه لـولا انفه متجـهم

كالهدب في شعر العيون فانه

لـولا تنشتر العيون وتسجم (٣)

وفي قصيدته بين الروح والجسد تجدّ لدى الرصافي نزعات فلسفية متنوعة من عقلية برهانية إلى تشكيكية لا إرادية ومن إيجابية تسليمية إلى سلبية هدامة على الرغم من تأكيد ابياتها على التلازم الوثيق بين الروح والجسد ، فلا جسد بلا روح ولا روح بلا جسد وقوله بخلود الروح لكنه يقع في هذه القصيدة اسير الشكوك والظنون فهو يشك في بقاء الروح ودوامها والغالب أنها تعود إلى الأرض لا إلى السماء لأنها بنت الأرض شأنها شأن مصير الجسم بعد الموت اثر مغادرة الروح فيرى أنه إلى فناء وتتحلل اجزاؤه وتعود إلى التراب الذي جبل منه ، فمن أبياتها

أرى للروح بالبدن اتصـالاً

خفياً لا تبين لـه رسـوم

تطيف به الهواجس شاعرات

وتعجز عن حقيقته الفهـوم

ولست اضن أن الروح تبقـى

إذا محيت من الجسد الرسوم

وربتما يكون لـهـا دوام

ولـكن غير شاعرة تـدوم

وما هبطت من الخضراء لكن

مـن الغبراء انبتها الحكـيم (٤)

اما موقف الرصافي من الموت والحياة يعبر عنه بقوله هما وليدان شقيقان لأب واحد وأم واحدة ,أما الحياة فنعمة من الله سابغة وهي أم العجائب كلها وأما الموت فهو رحمة من الله الواسعة من شأنه أن يبتذل المصون ولا تنفع فيه الرقي والراقون ومن غريب أمره أن يستمر وهو غير مذوق ويهاب وهو غير مرموق وكل ما فيه اخماد الالام وأخذ الناس بالأوهام فهو أبو الخرافات البشرية كلها (٥) ، وفي مسألة البعث والإيمان به فيؤكد على أن البعث مما لا تدركه العقول والإيمان به معقول ومقبول ؛ فالغاية منه اعتقاد المؤمن بيوم الدين الذي هو يوم الحساب والجزاء ذلك اليوم الذي يجازي فيه المحسن ويعاقب المسيء ، ولاريب أن الإنسان إذا كان مؤمناً بيوم الدين إيماناً صادقاً اجتنب الشرور وكف عن العدوان وبذل الجهد في الأعمال الصالحة وهذا ما تسعى إليه كل الأديان السماوية وجميع القوانين الوضعية (٦) وإذا كانت الفلسفة في اعمق تجلياتها هي محاولة الأسئلة الكبرى والمقولات الكبرى والحقائق الكبرى كالحياة والموت والكون والإنسان ومصيره؛ بل أنها محاولة لتفسير شامل للوجود وهي بنت العقل الخالص العقل الذي يعلو بنا فوق ذواتنا ويمنحنا الوعي بالوجود العميق

ويوغل بنا إلى حقائق الأشياء وهي بهذا المعنى ليس ببعيدة عن الشعر بل ربما تلتقي به عن طريق اسئلته عن جدوى الوجود وعن الإنسان ومصير الإنسان بعد الموت وهذا ما جسده الرصافي في اغلب قصائده الفلسفية ، لكن تبقى قصيدته ((جالينوس العرب أبو بكر الرازي)) أقوى وأجمل قصائد الرصافي التي تتحدث عن الجانب الفلسفي من شعره ، فهي عبارة عن لوحة فنية عالية الجودة رسمت بريشة فنان قدير يتمتع بمهارة وتقنية عاليتين وفيها ايضاً تكمن قوة الرصافي وعبقريته الفذة .

ولأهمية هذه القصيدة ولما احتوته من أبعاد فلسفية دقيقة اتخذها الباحث عنواناً لبحثه هذا ((صورة الفيلسوف الرازي في شعر الرصافي)) ، والتي تعبر عن الأثر الواضح لشخصية هذا الفيلسوف على فكر الرصافي وشعره ؛ فحاول أن يجسد تفاصيل هذه الشخصية ادبياً عن طريق هذه القصيدة والتي مزج فيها الشعر بالفلسفة أو الفلسفة بالشعر بخيط من قوة الذهن والذاكرة ومواهب نظرية فريدة تأتت إليه .

حاول الباحث جاهداً أن يقف على أهم الأسباب والدوافع التي حدت بمعروف الرصافي إلى أهتمامه وأعجابه وتأثره بسيرة هذا العالم وفلسفته دون غيره من فلاسفة الإسلام وعلمائه فلم يعثر على سبب حقيقي تشير إليه المصادر أو المراجع التي كتبت عن الرصافي فلم يجدّ إلا تفسيراً واحداً ؛ هو شدة اعجابه بالرازي وبآرائه ومعتقداته الفكرية وتأثره بسيرته الذاتية وتراثه الفلسفي والعلمي فاقبل على كتبه ومؤلفاته فدرسها واعجب به وتأثر بها بل ووجدّ بينهما هواجس مشتركة كحرية الفكر فقد كان الرازي مفكراً حراً وواعياً كالرصافي لما يدور حوله من آراء ومعتقدات فحاول الأثنان معالجة ذلك بحرية وجرأة قدّ لا تجدها عند غيرهما فكانا بحق مثابات شاخصة لمنطلقات فكرية وإنسانية وبحثية عالية عبرا عنها بعمقهما الفكري والعلمي ؛ سواء أكان ذلك على المستوى

الفلسفي الذي جسده تراث الرازي أو على المستوى الأدبي الذي كتبه الرصافي شعراً .

ففي مطلع قصيدته هذه يندب الزمن الذي عاش فيه الشاعر لأنه زمن انغبط فيه كل صاحب فضل من اسلافنا ومفكرينا وفلاسفتنا وعلمائنا فهؤلاء يمثلون لنا عبرة ينبغي الاقتداء بها , فعندما ينظر حال القوم ويحثهم على التمسك بمجدهم بهم الذي أندثر إلا ما بقى منه كأطلال واصفهم بأنهم طالبي حياة بجهل متسائلاً وهل تصفو الحياة لجهال ؟ فهم فيها كسكران يمشي بارتعاش يقوم مرة واخرى ينهوي فوق أوحال ويحاول بائساً الاستناد على الجدران لكن حتى هذه الجدران تدفعه وتقذفه بإذلال معبراً عن هذا الحال بأبياته التي تقول :-

إلا لفته منا إلى الزمن الخالي

فنغبط من اسلافنا كل مفضال

تلونا اناساً في الزمان تقدموا

وكم عبرة فيمن تقدم للتالي

إلا فاذكروا يا قوم أربع مجدكم

فقد درست إلا بقية اطلال

تطلبتمُ صفو الحياة وانتمُ

بجهل وهل تصفو الحياة لجهال

وما أنتمُ الا كسكران طافح

تحسى من الصهباء عشرة ارطال

مشي بارتعاش في الطريق فتارة

يقوم واخرى ينهوي فوق اوحال

يمد إلى الجدران كفَّ اسناده

فتقذفه الجدران قذفة إذلال (٧)

ثم يستذكر الشاعر معروف الرصافي في قصيدته هذا الفيلسوف عندما حاول الرجوع إلى الماضي وتحديداً في القرون التي عاش فيها حكماء العرب وفلاسفتهم وعلماؤهم ومنهم أبو بكر الرازي واصفاً إياه بالفتى الذي أنجز أعمالاً عظاماً وهي التي أعطته قيمته الحقيقية ، لأن اعمار الرجال تقدر وتثمن بأعمالهم فهو (الرازي) فضلاً عن أنه فيلسوف فقد كان عالم رياضيات وطبيب ومنجم وأديب وعالم كيمياء ؛ كما أن فوق ذلك هو مفكر أخلاقي حاول أن يهذب النفوس بأفضل الأعمال والأفعال وبأحسن الأقوال والحكم بل استطاع أن يشفي الأرواح والنفوس من امراضها وجهلها كما نجح في تطبيب الأجساد والأجسام من عللها فيقول الرصافي واصفاً ذلك :–

ولما طويت الدهر بيني وبينهم

على بعد ازمان هناك واجيال

قعدت بأوساط القرون فجاءني

أبو بكر الرازي فقمت لا جلال

فتى عاش اعمالاً جساماً وإنما

تقدر اعمار الرجال بأعمال

حكيم رياضي طبيب منجم

أديب وفي الكيمياء حلال اشكال

آتى فيلسوفاً للنفوس مهذباً

بأفضل أفعال وأحسن احوال

لقد طبب الأرواح من داء جهلها

كما طبب الأجسام من كل إعلال (٨)

المبحث الثاني :

ثم يبدأ بذكر تفاصيل سيرة الرازي الذاتية وفيها يحدد مولده بالأربعين من القرن الثالث الهجري على الرغم من اختلاف الباحثين في تحديد تاريخ ولادته ؛ لأن الشخص لا يؤرخ له إلا بعد شهرته وذيوع صيته وانتشار فكره فمنهم من اشار إلى أنه ولد في عام ٢٥١هـ[٩] ، ومنهم من قال بتاريخ هذه الولادة نفسها أو تقدم عنها كثيراً أو قليلاً [١٠] مشيراً إلى أنه ينتمي إلى عائلة زكريا إذ كان والده تاجر في مدينة الري مسقط رأسه وهو بهذا يتفق مع جميع المؤرخين الذين اشاروا إلى ذلك [١١] ، وهي مدينة علم كما يقول عنها الرصافي تعطيه من غير قيد أو شرط كما في الأبيات التالية من القصيدة

تولد عام الأربعين الذي انقضى

لثالث قرن ذي مآثر ازوال

إلى زكريا ينتمي أنه له

ابٌ تاجرٌ في الري صاحبُ اموال

على حين كانت بلدة الري غادة

إلى العلم تعطوا جيدها غير معطال [١٢]

مشيراً إلى مراحل التعليم فيها والتي تبدأ بالكتاتيب التي تعلم الأطفال ثم المدارس للشبان وصولاً إلى المراحل المتقدمة من العلم كالطب والحكمة والفلسفة وهي من العلوم المتخصصة والمتعمقة وهذه العلوم النفسية يحاول أن يتعلمها الفقير والغني عندهم ولم تكن مدينة الري وحدها تسعى إلى ذلك ؛ بل ينطبق هذا الحال على كل بلدان ومدن الإسلام أوصلها بعد فتحها إلى أحسن الأحوال فبعد أن انتهت مرحلة الفتح والقتال والحروب دارت فيها رحى العلم والمعرفة وكانت بغداد احدى أهم اقطاب العلم آنذاك مشيداً بالخليفة المأمون بعده احد أبرز خلفاء بني العباس الذين أهتموا بالعالم وإقامة بيت الحكمة

وترجمة اغلب الكتب اليونانية والأجنبية الاخرى إلى العربية للإفادة منها وقد وصفت أبيات الرصافي التالية ذلك :-

مدارس بالشبان تزهو ودونها

كتاتيب للتعليم تزهو بأطفال

بها جُلّ درس القوم طب وحكمة

وفلسفة فيها لهم اي ايغال

وكانت نفيسات الصنائع عندهـم

يحاولها ذو الفقير منهم وذو المـال

وما كان هذا الحال في الري وحدها

بل الحال في البلدان طرّاً كذا الحال

فإن هدى الإسلام انهى فتوحـــه

وأوصلها للحد أحسـن أيصـال

وبدّل ابطال الحروب من الورى

بأبطال علم للجهـالة قتّـال

فدارت رحى تلك العلوم وقطبها

ببغداد مركوزة بربوة إجـلال

وكانت يد المأمون في ذاك اخجلت

لسان الغلا في شكره اي اخجال[١٣]

بعدها يصف الرصافي في قصيدته هذه مراحل تطور تعليم الرازي إذ بدأ في المدارس ناشئاً أو مبتدئاً ثم أقبل على الترجمة بكل جد متعلماً من الصوت بشكل عام ومارسه بشكل تفصيلي إذ اجاد موسيقى الألحان بدروسه ، وحتى سن العشرين لم يكن لديه سوى فن الغناء [١٤] ، حاول أبوه يغير اتجاه اهتمامه

من العلم والموسيقى والغناء إلى مهنته التجارة إلا أن الرازي أصرّ على مواصلة جهده بالتعلم وإدراك العلم مشيراً إلى أن أمانة الجهل بداخله تحيي كل آماله ، وهكذا واصل تعليمه وأخذ يستقي من العلم كل ما أمكن، فبدأ بدراسة الفلسفة بعدها مفتاح العلوم كلها وهي التي تفك كل اغلال الجهل وأنتهى بإكمال دراسته الطب على يد علي بن ربن الطبري الذي كان عالماً في الطب وله كتاب مشهور يعرف (بفردوس الحكمة) يقول الرصافي في هذا الصدد

تدرج في تلك المدارس ناشئاً

مـترجماً يسعى بـجد واقبــال

تعلم فن الصوت بادئ بدئـه

ومارس تفصيلاً به بعد اجمالي

وقدّ جاوز العشرين سناً ولم يكن

لشيء سوى فن الغناء بميال

فرام أبوه منه تحويل عزمــه

بجذب إلى شغل التجار وإدخال

فقال له دعني مع العلم أننــي

إذا ما أمت الجهل احييت آمالي

وهل يستطيع المرء شغلاً إذا غدا

له شاغل بالعلم من كل أشغالِ

سعى سعيه نـحو التعلم بادئـاً

بعلم لدى اهل التفلسف ذي بال

وقد كان مفتاح العلوم تفلسـف

تفك به من جهلهم كل اغلال

وقد أكمل الطب المفيد قراءة

على الطبري الجر أحسن اكمال[١٥]

ولم يكتفِ الرازي بتعلمه في الري ؛ فالعلم لا يكتمل إلا بزيادة الحوافر العلمية في البلاد الإسلامية ، ولهذا يصف الرصافي في شعره الرازي بعد الثلاثين ولإكمال علمه أخذ يتنقل ويتجول ويقصد الحواضر العلمية المزدهرة فجاء إلى بلاد الشام ثم مصر ثم إلى بلاد الغرب وحل في مدينة قرطبة ثم عاد ثانية إلى مصر ومنها رحل إلى بغداد ، وبغداد آنذاك جنة يجري العلم منها أنهار سلسال ففيها العديد من خزائن الكتب والمعرفة وفيها العديد من المراصد والمراقب وأخذ يمارس الطب في البيمارستات البغدادية إلى أن أصبح رئيساً للطب فيها وتدبير الأحوال فرتب مرضاه واصلح شأنه وظل يسعى لممارسة الطب ومعالجة المرضى ويبذل الجهد الكبير في ذلك وعلى الرغم ما ذكره الرصافي من أن الرازي قدّ تنقل في البلدان التي ذكرها إلا أن كتب التراجم لم تذكره سوى تنقله بين مسقط رأسه الري وبغداد وكان تعلقه ببغداد أكثر حتى قيل أنه مات ودفن فيها [١٦]. لكن أبيات الرصافي التالية تشير إلى خلاف ذلك بأنه زار اكثر من مدينة بغداد إذ يصف رحلاته بين المدن التي ذكرها بقوله :-

ومذ جاوز الرازي الثلاثين واغتدى

مدلّاً على اقرانه ايَّ دلال

رأى من تمام العلم للمـرء أنـه

يسيح بضرب في البلاد وتجوال

فقام وشَّد الرحال والغرز وامتطى

لقطع متـن هوجـاء شمـلال

فجاء بلاد الشام توَّاً وجـازهـا

إلى مصر في وخدٍ حثيث وإرقال

وخاض عباب البحر للغرب قاصداً

مواطن للإسلام لم يسلُها السائل

وحل حلول البدر في السعد نائلاً

بقرطبة آماله نـاعم البـــال

وودعها من بعد ذلك راجعاً

إلى مصر لا توديع مستكره قالِ

ومنها إلى بغداد سافر قاطعاً

إليها الفلا ما بين حلٍّ وترحال

وبغداد كانت هي إذ ذاك جنة

بها العلم اجرى منه انهار سلسال

ولما غدا الرازي ببغداد باسطاً

من العلم ابواعاً له ذات اطوال

اقيم لبيمارستاتها عن كفاية

رئيساً بتطبيب وتدبير احوال (١٧)

ولم يكتف الرازي في المعرفة الطبية النظرية ،وتشير قصيدة الرصافي إلى ذلك بل كان طبيب سريرياً وعملياً ، والملاحظة السريرية هي التي تقرر حال المريض بدقة فكان يخبر القوم بما توصل إليه من وصف المرض بالتبيان الواضح والإملاء الحسن فيقول الرصافي واصفاً ذلك

ويلقي السريريات وهي مسائل

لدى سُرُرُ المرضى تقرّر في الحال

فقد كان يليقها على القوم ناطقاً

بأوضح تبيان واحسن إملال (١٨)

وهذا ما اشارت إليه المصادر التاريخية وأكدت عليه ايضاً ، وقد كانت له جلسات علمية تتم على شكل حلقات من طلابه حول سرير المريض في

المستشفيات شارحاً لهم الحالات المرضية النادرة واحدة بعد الأخرى حتى عد من أكثر الاطباء تجاربا وخبرة [١٩] .

فضلاً عن عمله في الطب فقد اشتغل الرازي في الكيمياء ، وكان شغل عظيم كما يصفه الرصافي إذ قضى اياماً يجري التجارب فيها ويواصل العمل طيلة اليوم بدون انقطاع اي يواصل النهار في الليل حتى أصبح المجرب والمشهور فيها مشيراً إلى دوره في بناء المستشفيات وآلف فيها ووصفها دون أن يهمل أو يغفل شيء من وصفها كما في الأبيات التالية :-

لقدّ شغل الرازي بغداد شغله

عدا الطب في الكيمياء أعظم اشغال

فقضى بها أيامه في تجارب

وواصل ابكاراً لـهن بآصـــال

فلقب فيها بالمجرّب حرمة

تفرد مخصوصاً بـها بين أمثال

وآلف في المستشفيات مؤلفاً

تقصى به في وصفها دون اغفال [٢٠]

والأجمل ما في القصيدة الصورة الشعرية التي شبه بها الرصافي العلم بالمرآة مشيراً إلى أنه ربما يصدأ وجهه لكن ليس سوى حسن الخلائق من جال وهنا يربط ربطاً دقيقاً بين العلم والاخلاق في بعض أبياته ؛ مؤكداً أن أخا العلم لا يغلو على سوء خلقه وذو الجهل أخلاقه حسنت غال بل لو وازن العلم الجبال ولم يكن له حسن خلق فلا يعادل ذلك عنده وزن مثقال , ومن هنا جاء فضل الرازي على الآخرين لأنه جمع الأثنين زيادة في العلم وحسن الخلق واشرف الأعمال إذ يقول الرصافي في ذلك :-

أرى العلم كالمرآة يصدأ وجهه

وليس سوى حسن الخلائق من جال

أخو العلم لا يغلو على سوء خلقه

وذو الجهل إنّ اخلاقه حسنت غـال

ولو وازن العلم الجبال ولم يكن

له حسن الخلق لم يزن وزن مثقال

ولكنما الرازي قد ازدان علمه

بأحسن اخلاق واشرف افـعال (٢١)

ويصف الرصافي الحالة الإنسانية الرائعة التي كان يتمتع بها الفيلسوف الرازي ولاسيما مع مرضاه ومع الفقراء وكيف كان يزورهم إلى بيوتاتهم يتفقد احوالهم الصحيحة عن طريق الفحص والسؤال ويزيد في فضله عليهم عندما يأتيهم بالمال والعلم لتطبيب اوجاعهم وتأمين حاجاتهم فلم يذخر المال إلا لنفقه على علم أو لسائل ومحتاج ، وبهذا جمعت شخصيته كل الخصال الحميدة والفاضلة للعالم والطبيب والإنسان وربما هذه الفضائل التي تمتع بها الرازي هي التي جعلت الرصافي ينظم أبياتاً يبعد فيها تهمة الإلحاد عنه مؤكداً أنه كان سليم العقيدة بعيداً عن الزندقة والإلحاد لأن هذه السلوكيات والاخلاقيات التي اتصف بها الرازي لا يمكن أن تصدر عن شخصية كافرة أو زنديقية أو ملحدة يقول الرصافي :-

فتى كان مملوء الجوانح رحمة

بكل هزيل الجسم من سقم إقلال

يزور بيوت البائسين بنفسه

ويفتقد المرضى بفحص وتسأل

ويأتيهم بالمال والعلم مسعداً

لتطبيب اوجاع وتأمين اوجـال

وما كان يقنو المال الا لبذله

لتعليم علم او لإعطاء سؤّال

وكان سليماً في العقيدة قلبه

بعيداً عن الالحاد ليس بختّال [٢٢]

ولابد من الاشارة هنا إلى تهمة الإلحاد التي الحقت بالرازي لم يسلم منها الشاعر معروف الرصافي نفسه إذ تعرض لكثير من الانتقادات العنيفة حول آرائه المثيرة التي وردت في كتابه (الشخصية المحمدية) الذي ألفه بعد أن هجر بغداد وأتخذ من الفلوجة معتزلاً وظل يشتغل به حتى عام ١٩٤١ [٢٣] ، ولم يطبع هذا الكتاب في حياته وإنما طبع بعد وفاته في المانيا عام ٢٠٠٢ .

ثم تنتهي قصيدة الرصافي حول الفيلسوف الرازي بوصف دقيق للمراحل الأخيرة من حياته ؛ إذ يشير فيها إلى أن الرازي بعد مكوثه ببغداد مدة غادرها إلى الري بعد أن أشتاق إليها وأصبح فيها طبيباً وصديقاً إلى منصور بن اسحاق والي السامانيين على الري فألف له كتاب طبي سماه باسمه المنصوري في الطب ضمنه أحسن الأقوال والآراء في هذا المجال بعدها يصف اواخر حياة الرازي وما آلت إليه أيامه الأخيرة من فقر وعمى وإهمال إلى أن توفي في مسقط رأسه الري ودفن فيها لكن اثاره لم تدفن بل ستبقى خالدة خلود الدهر وفي هذه الأبيات يصف الحالة المأساوية التي انتهت إليها حياة هذا المفكر والفيلسوف

ولما قضى الرازي ببغداد برهة

مضى قافلاً للري شوقاً إلى الألِ

فلما آتى تلك البلاد غدا بهـا

طبياً لدى المنصور صاحبها الوالي

والف للمنصور إذ ذاك باسمة

كتاباً حوى في الطب احسن أقوال

ولم تصف للرازي اواخر عمره

وعاد اخا همّ شديد وبلبال

فقد عميت عيناه من بعد واغتدى

يجول الفقر الشديد بأسمـــال

وإن عداء الـدهر شنشة لــه

يصول بها قهراً على كل مفضال

ولما انتهى نحو الثمانين من عمره

قضى نحبه من غير مال وانسال

ولكنه في الناس خلف بعده

من العلم آثاراً قليلــة أمثــال

فكم كتب ابقى بها الذكر في الورى

والفها نسجاً على خير منوال

وها انا انهي القول لالتمامــه

ولكن لعجزي عن نهوض بأجبال

واجعل هذا الشعر مسكاً ختامه

بما قال في بيتين معناها حــال

لعمري وما ادري وقد آذن البلى

بعاجل ترحال الى اين ترحالي

واين محل الروح بعد خروجها

من الهيكل المنحل والجسد البالي

(٢٤)

الخاتمة

تنتهي هذه القصيدة التي صورت بدقة عالية ملامح وشخصية الفيلسوف الإسلامي الرازي ، بعد أن عجزت كتب التراجم والسير والتواريخ القديمة عن ذكر الكثير من التفاصيل التي وردت فيها وبغض النظر عن صحة المعلومات التي وردت فيها أو عدم صحتها فأن الأمر العجيب من اين استقى هذا الشاعر العملاق كل هذه التفاصيل عن حياة الرازي إذا لم تذكرها كل هذه الكتب والمراجع التي تحدثت عن حياته النقطة الأخرى التي يجب الإشارة إليها هنا ، هنالك الكثير من التشابه في اراء وسلوكيات وتفاصيل حياة كل من الرازي والرصافي فالأثنان أصحاب فكر حر لا يقبل الأشياء دون قياسها بميزان العقل ؛ ولهذا اتهما بالإلحاد والكفر كما أن نهاية حياة كل منهما مشابه لنهاية حياة الرازي هذا الرصافي بعد فشل ثورة رشيد عالي الكيلاني يصف حياته بأنه عاش في شبه انزواء عن الناس ويشكو حاله إلى اصدقائه فيقول ((أنا من آلامي في عذاب مستمر وهي في زيادة منقطع لقدّ ضاقت بي الحياة حتى أصبحت أنادي ألا موت بياع فاشترته)) [٢٥] ، وتنتهي به الحياة القاسية كما تنهي بكل إنسان بائس يعاني المرض والفقر والفاقة .

قائمة الهوامش

١– انظر مثلاً

– الصورة الفنية في شعر الرصافي ، رسالة ماجستير تقدم بها الطالب وليد عبدالله حسين ، جامعة بغداد ، ١٩٨٥ .

– معروف الرصافي ، حياته وادبه السياسي ، رسالة ماجستير قدمت الى جامعة القاهرة ، ١٩٦١ .

– ديوان الرصافي ، دراسة نحوية دلالية ، اطروحة دكتوراه تقدم بها الطالب ، ميلاد عبدالسلام ميلاد ، جامعة القاهرة ، ٢٠١٢ .

٢– الرصافي ، معروف عبدالغني ، ديوان معروف الرصافي ، بيروت ، ١٩٧٢ ، المجلد الاول ، ص٥٠٥ .

٣– الرصافي ، ديوان الرصافي ، ص٥١١ .

٤– الرصافي ن ديوان الرصافي ، ص٥٣٢ .

٥– الرصافي ، عبدالغني ، خواطر وافكار ، لندن ، ١٩٨٨ ، ص٧٩ .

٦– الرصافي ، عبدالغني ، رسائل التعليقات على كتب التصوف الاسلامي ، بيروت ، ١٩٥٧ , ص٤٩ .

٧– شامي ، يحيى ، شرح ديوان معروف الرصافي ، بيروت ، ٢٠٠٢ ، ص٤٧٨

٨– المصدر نفسه ، ص٤٧٩ .

٩– البيروني ، ابو الريحان ، فهرست كتب الرازي ، تحقيق بول كراوس ، باريس ، ١٩٣٦ ، ص٤–٦ .

– وكذلك كريموف ، عبدالله ، ابحاث جديدة للمستعربين السوفيت ، الكتاب الثالث ، ص١٤ .

– دائرة المعارف الاسلامية ، طهران ، ١٩٣٣ ، ج٩ ، ص٤٥١ .

– كوربان ، هنري ، تاريخ الفلسفة الاسلامية ، ترجمة نصير مروه ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص٢١٣ .

١٠– خير الله ، امين سعد ، الطب العربي ، بيروت ، ١٩٧٣ ، ص٥ ، كذلك السامرائي ، كمال ، ابو بكر الرازي واثره في الطب ، بغداد ، ١٩٨٨ ، ص٩ .

١١– الحموي ، ياقوت ، ابو عبدالله شهاب الدين ، معجم البلدان ، بيروت ، ١٩٥٧ ، ج٣ ،ص١١٨ .

١٢– شامي ، يحيى ، مصدر سابق ، ص٤٧٩ .

١٣– المصدر نفسه ، ص٤٨٠ .

١٤– ابن ابي اصيبعه ، عيون الانباء في طبقات الاطباء ، تحقيق ، نزار رضا ، ج١ ، ص٣١٣ .

١٥– شامي ، يحيى ، مصدر سابق ، ص٤٨٠ .

١٦– العلوجي ، عبدالحميد ، تاريخ الطب العربي ، بغداد ، ١٩٦٧ ، ص٤٤٠ .

١٧– شامي ، يحيى ، مصدر سابق ، ص٤٨١ .

١٨– المصدر نفسه ، ص٤٨٢ .

١٩– ابن ابي اصيبعة ، مصدر سابق ، ص٣١٤ .

٢٠– شامي ، يحيى ، ص٤٨٢ .

٢١– المصدر نفسه ، ص٤٨٢ .

٢٢– المصدر نفسه ، ص٤٨٣ .

٢٣– مطلوب ، احمد ، الرصافي اراؤه اللغوية والنقدية ، بغداد ، ١٩٧٥ , ص٣٨

٢٤– شامي ، يحيى ، ص٤٨٤ .

٢٥– الرصافي ، عبدالغني ، الالة والادارة وما يتبعهما من الملابس والمرافق والهنات ، تحقيق عبدالحميد الرشودي ، بغداد ، ١٩٨٠ ، ص٥٠٤ .

قائمة المصادر والمراجع

١– ابن ابي اصيبعة ، موقف الدين احمد بن قاسم ، عيون الانباء في طبقات الاطباء ، بيروت ، ١٩٧٥ .

٢– البيروني ، ابو الريحان ، فهرست كتب الرازي ، تحقيق بول كراوس ، باريس ، ١٩٣٦.

٣– الحموي ، ياقوت ، معجم البلدان ، بيروت ، ١٩٥٧ .

٤– الرصافي ، معروف عبدالغني ، ديوان الرصافي ، بيروت ، ١٩٧٢ .

٥– الرصافي ، معروف عبدالغني ، خواطر وافكار ، لندن ، ١٩٨٨ .

٦– الرصافي ، معروف عبدالغني ، رسائل التعليقات على كتب التصوف الاسلامي ، بيروت ، ١٩٥٧ .

٧– الرصافي ، عبدالغني ، الالة والاداة وما يتبعهما من الملابس والمرافق والهنات ن تحقيق عيد الحميد الرشودي ، بغداد , ١٩٨٠ .

٨– الرصافي ، معروف ، اراء الرصافي في السياسة والدين والاجتماع ، جمع وترتيب ، سعيد البدري ، بغداد ، ب / ت

٩– العلوجي ، عبدالحميد ، تاريخ الطب العربي ، بغداد ، ١٩٦٧ .

١٠– خير الله ، امين سعد ، الطب العربي ، بيروت ، ١٩٧٣ .

١١– دائرة المعارف الاسلامية ، طهران ، ١٩٣٣ .

١٢– شامي ، يحيى ، شرح ديوان الرصافي ، بيروت ، ٢٠٠٢ .

١٣– كريموف ، عبدالله ، ابحاث جديدة للمستعربين السوفيت .

١٤– كوربان ، هنري ، تاريخ الفلسفة الاسلامية ، ترجمة نصير مروة ، بيروت ، ١٩٧٧.

١٥– مطلوب ، احمد ، الرصافي ، اراءه اللغوية والنقدية ، بغداد ، ١٩٧٥ .

الرسائل والأطاريح

١– الصورة الفنية في شعر الرصافي ، رسالة ماجستير تقدم بها الطالب ، وليد عبدالله حسين ، جامعة بغداد ، ١٩٨٥ .

٢– معروف الرصافي ، دراسة نحوية دلالية ، اطروحة دكتوراه تقدم بها الطالب ميلاد عبدالسلام ميلاد ، جامعة القاهرة ، ٢٠١٢ .

٣– معروف الرصافي ، حياته وادبه السياسي ، رسالة ماجستير تقدم بها الطالب رؤوف الواعظ ، جامعة القاهرة ، ١٩٦١ .

٤– ظاهرة التمرد في ادبي الرصافي والزهاوي ، رسالة ماجستير تقدمت بها الطالبة سفانه داود سلوم الى جامعة بغداد ، ٢٠٠٧ .

٥– الفكر النقدي في ادب الزهاوي والرصافي ، رسالة ماجستير تقدمت بها الطالبة ، امل العبيدي ، جامعة بغداد ، ٢٠٠٥ .